السطر الأخير من القصة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

رجعتُ إلى أوراقٍ لى قديمةٍ ، يبلغ عمرها ثلاثين سنةً أو إزاءها ، تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً ؛ وجعلتُ أفلِّى هذه الأوراقَ واحدةً واحدة ، فاذا أنا على أطلال الأيام فى مدينةٍ قائمةٍ من تاريخى القديم ، نائمةٍ تحت ظلماتها التى كانت أنوارَ عهدٍ مَضى ؛ وإذا أنا منها كالذى اغترب ثلاثين سنةً عن وطنه ثم آب إليه ، فما يَرى من شىءٍ كان له به عهدٌ فى أيام حداثته ونشاطه إلا اتّصلَ بينهما سِرّ . ومن طبيعة انقلابِ العاشقِ فى حنينه أن يَجْمَلَ كلُّ شىءٍ يتّصل به كأنه ذو قلبٍ مثلِه له حنينٌ ونجوى !

وذلك التلاشى المحفوظُ فى هذه الأوراق ، يَحفظُ لى فيها وفيما تحتويه نفساً وطبيعةً كانتا نفسَ شاعرٍ وطبيعةَ روضة ، فى عهدٍ من الصِّبى كنتُ فيه أتقدّم فى الشباب وفى الكون معاً ، كأنّ الأشياء تُخلَق فىَّ خلقاً آخر ؛ فاذا قرضتُ شعراً واستوى لى على ما أحب ؛ أحسستُ إحساسَ الملك الذى يَضُمّ إلى مملكته مدينةً جديدة ؛ وإذا تناولتُ طاقةً من الزهر وتأملتُها على ما أحب ، شعرتُ بها كأجمل غانيةٍ من النساء تُوحى إلىَّ وحىَ الجمال كلَّه ؛ وإذا وقفتُ على شاطئ البحر تَرجرجَ البحرُ بأمواجه فى نفسى ، فكنتُ معه أكبرَ من الأرض وأوسعَ من السماء . أما الحب . . . ؟ أما الحب فكانت له معانيه الصغيرةُ التى هى كضرورات الطفل للطفل ، ليس فيها كبيرُ شىء ، ولكن فيها أكبرَ السعادة ، وفيها نَضرةُ القلب

عهدٌ من الصِّبى كانت فيه طريقةُ العقل من طريقة الحُلم ؛ وكانت العاطفةُ هى عاطفةً فى النفس ، وهى فى وقتٍ معاً خُدعةٌ من الطبيعة ؛ وكان ما يأتى يُنسِى دائماً ما مضى ولا يُذكِّرُ به ؛ وكانت الأيام كالأطفالِ السعداء ، لا ينام أحدُهم إلا على فكرةِ لَعِبٍ ولهو ، ولا يستيقظ إلا على فكرةِ لهوٍ ولعب ؛ وكانت اللقمةُ نفسُها كأنّ فيها ألفاظاً من الحلوى ؛

وكانت الآلامُ — على قِلّتها — كالمريض الذى معه دواؤه المجرَّب ؛ وكانت فلسفةُ الجمال تضحك من فيلسوفها الصغير ، الواضحِ كلَّ الوضوح ، المقتصرِ بكل لفظ على ما يعرف من معناه ، المتفلسِفِ فى تحقيق الرغبة أكثر مما يتفلسف فى تخيُّل الفكرة !

هو العهدُ الذى من أخصّ خصائصه أن تعملَ ، ويكونَ العملُ فى نفسه عملاً ، ويكونَ فى نفسك لذة

* * *

فى أوراقى تلك بحثتُ عن قصّة عنوانها « الدّرس الأوّل فى علبة كبريت » كتبتها فى سنة ١٩٠٥ ، وأنا لا أدرى يومئذ أنها قصّةٌ يَسْبَح فى جوّها قدَرٌ روائىٌّ عجيب ، سيأتى بعد ثلاثين سنة فيكتب فيها السطر الأخير الذى تم به فلسفة معناها

وهأنذا أنشرها كما كتبتُها ؛ وكان هذا القلمُ إذ ذاك غضّاً لم يَصلُب ، وكان كالغصن تميل به النسمة ، على أن أساس بلاغته قد كان ولم يزل ، بلاغةَ فرحه أو بلاغةَ حزنه ؛ وهذه هى القصة :

« عبد الرحمن عبد الرحيم » غلامٌ فلاح ، قد شهد من هذه الدنيا تسعةَ أعوام ، مرّت به كما عبرّ الزمنُ على ميتٍ لا تزيده حياةُ الأحياء إلا إهمالاً ؛ فنشأ مَنْشأ أمثاله ممن فقدوا الوالدين ، وانتُزِعوا من مَخْلمهم فتُركوا للطبيعة تَفْصِلهم وتصِلهم بالحياة ، وتضيّق لهم فيها وتوسّع

وهيّأت الطبيعةُ منه إنساناً حيوانياً ، لا يبلغ أشُدَّه حتى يغالبَ على الرزق بالحيلة أو الجريمة ، ويستخلصَ قُوتَه كما يرتزق الوحشُ بالمِخلَب والناب ؛ ولن يكون بعدُ إلا مجموعةً من الأخلاق الحيوانيّة الفاتكةِ الجريئة ؛ فان الطبيعة متى ابتدأت عملَها فى تحويل الانسان عن إنسانيته ، نزلت به إلى العالَم الحيوانىّ ووصلته بما فيه من الشر والدناءة ، ثم لا تترك عملَها حتى يتحوّلَ هو إليها

وألِفَ « عبدُ الرحمن » فى بلده حانوتَ رجلٍ فقير ، يستغنى بالبيع عن التكفّف وعن المسألة ؛ فكان الغلام يُكثر الوقوفَ عنده ، وكان يطعم من صاحبه أحياناً كرزق الطير ، فُتَيْتاتٍ وبقايا ، إذ كان الغلام شحّاذاً ، وكان صاحبُ الحانوت

لا يرتفع عن الشحاذة إلا بمنزلة تجعل الناس يتصدقون عليه بالشراء من هباته التي يسميها بضاعة : كالخيط والابرة ، والكبريت والملح ، وغزال للولد ، وكحل للصبايا ، ونشوق للعجائز نسخة الشيخ الشعراني ، وما لف لفها مما يصعد ثمنه من كسور المليم إلى المليم وكسوره !

وتغفله الغلام مرة ، وأهوى بيده إلى ذخائر الحانوت ، فالتقطت « علبة كبريت » ، كان الفرق كل الفرق بين أن يسرقها وأن يشتريها نصف مليم . ولكن من له « بالعشرين الخردة » ؟ وهي عند مثله دينار من الذهب يرن رنيناً ويرقص على الظفر رقصة إنجليزية

وماذا يصنع بالعلبة ؟ همت نفسه أن تجادله ولما تكن رعشة يده من هول الاثم . ولكن الغلام كان طبيعياً ولم يكن فيلسوفاً ، ولذلك رأى أن يحرز الحقيقة بعد أن وقعت يده عليها . وقد اصطلح الناس على أن مادة السرقة هي «مد اليد» أخطأت أم أصابت ، وجاءت بالغالي أو جاءت بالرخيص ؛ فضم أصابعه على العلبة وانتزعها ، وترك في مكانها فضيلة الأمانة التي لم يعرف له الناس قيمتها ، فهانت كذلك على نفسه ، وانطلق وهي تناديه :

أيها الغلام ، أتدفع ثمن علبة الكبريت سنتين من عمرك ، وهل خلا الناس ممن يعرفون لعمرك قيمة ؟

وارتد رجع الصوت الخفي الى قلبه من حيث لايشعر ، فضرب قلبه ضربات من الخوف ، ونزا نزوة مضطربة ؛ فالتفت الغلام مرة أخرى ، ثم أمعن في الفرار وترك الأمانة تناديه :

أيها الغلام ، إن لك في الآخرة ناراً لا توقد بهذا الكبريت ، ولك في الدنيا سجن كهذه العلبة ، فالعب العب مادام الناس قد أهملوك ، إلعب بالثقاب الذي في يدك فسيمتد فيك معنى الذنب حتى يجعل حياتك في أعمار الناس دخاناً وناراً ، وستكون أيامك أعواداً كهذا الكبريت تشتعل في الدنيا وتحرق

وكأن أذناب السياط كانت تلهب ظهر الغلام المسكين ، ولكنه ما كاد يلتفت هذه المرة حتى كان في قبضة صاحب الحانوت ، وإذا هو بكلمة من لغة كفه الغليظة ، خيلت له في شعرها أن جداراً انقض عليه ، وثلمها جلة من قوافي الصفع جلجلت في أذنيه كالرعد ، وأعقب ذلك مثل الموج من جماعات الأطفال أحاط به ، فترك هذا الزورق الانساني الصغير يتكفأ على صدمات الأيدي . فما أحس الغلام التعس إلا أن الكبريت الذي في يده قد انقدح في رأسه ، وكانت أنامل صاحب الحانوت كأنما تحك أعواده في جلد وجهه الخشن !

* * *

وذهبوا به الى (دوار) العمدة يقضي فيه الليل ، ثم يصبح على رحلة الى المركز والنيابة . وانطرح المسكين منتظراً حكم الصباح ، مؤملاً في عقله الصغير ألا يفصح النهار حتى يكون « سيدنا عزرائيل » قد طمس الجريمة وشهودها ؛ ثم أغفى مطمئناً الى ملك الموت وأنه قد أخذ في عمله بجد ، وأيقن عند نفسه أن سيشحذ في الخميس مما يوزع في المقبرة صدقة على أرواح العمدة ، وصاحب الحانوت ، والخفير الذي عهدوا اليه جره الى المركز . . . ! وكيف يشك في أن هذا واقع بهم وهو قد توسل بالولي فلان ونذر له شمعة يسرقها من حانوت آخر . . !

هكذا عرف الشر قلب هذا الصبي ، وانتهى به عدل الناس الى أفظع من ظلم نفسه ، وكأنهم بذلك القانون الذي يصلحونه به على زعمهم ، قد ناولوه سبحة ليظهر بها مظهر الصالحين ، ولم يفهموه شيئاً ففهم أنهم يقولون له : هذه الجريمة واحدة ، فعد جرائمك على هذه السبحة لتعرف كم تبلغ !

كانت في الحقيقة لعبة لا سرقة ؛ وكانت يد الغلام فيما فعلت مستجيبة لقانون المرح والنشاط والحركة ، كما تكون أعضاء الطفل لا كما تكون يد اللص ؛ وكان أشبه بالرضيع يمد يده لكل ما يراه ، لا يميز ضاراً ولا نافعاً ، وإنما يريد أن يشعر ويحقق طبيعته ؛ وكان كل ما في الأمر وقصارى ما بلغ — أن خيال هذا الغلام ألف قصة من قصص اللهو ، وأن الكبار أخطأوا في فهمها وتوجيهها . . ! ليست سرقة الطفل سرقة ، ولكنها حق من حقوق ذكائه يريد أن يظهر

* * *

وانتهى « عبد الرحمن » الى المحكمة ، فقضت بسجنه في

(اصلاحية الأحداث) مدة سنتين ، واستأنف له بعض أهل الخير فى بلده ؛ صدقةً واحتساباً . . . إذ لم يكلف الاستئناف إلا كتابة ورقة . فلما مَثَلَ الصغيرُ أمام رئيس المحكمة لم يكن معه لفقره محام يدفع عنه ، ولكن انطلق من داخله مُحامٍ شيطانىٌّ يتكلم بكلام عجيب ، هو سخريةُ الجريمة من المحكمة ، وسخريةُ عملِ الشيطان من عَمَلِ القاضى . . . !

سأله الرئيس : « ما اسمك ؟ »

— « : إسمى عبده ، ولكن العمدة يسمينى : يابن الكلب ! »

— : « ما سِنُّك ؟ »

— : « أبويا هُوَ اللى كان سنَّان »[1]

— : « عُمْرك إيه ؟ »

— : « عُمْرى ؟ عُمْرى ما عَمَلت شَقَاوة ! »

النيابة للمحكمة : « ذكاءٌ مخيف يا حضرات القضاة ! عُمرُه تِسْع سنوات ! »

الرئيس — : « صَنعتك إيهْ ؟ »

— : « صَنعتى ألْعَب مع محمود ومريم ، وأضرَب اللى يضرَبْنى ! »

— : « تعيش فِينْ ؟ »

— : « فى البلد ! »

— : « تاكل منين ؟ »

— : « آكل من الأكل ! »

النيابة للمحكمة : « يا حضرات القضاة ؛ مثلُ هذا لا يسرق علبة كبريت إلا ليُحرِق بها البلد . . . ! »

الرئيس : « ألَكَ أمّ ؟ »

— : « أمى غضْبتْ على أبويا ، وراحت قعدت فى التُّرْبة ، ما رِضْيِتْش تِرْجع ! »

— : « وأبوك ؟ »

— : « أبويا لآخرْ غِضبْ وراحْ لها »

الرئيس ضاحكاً : « وأنتَ ؟ »

— : « والله يا افندى عاوز اغضَب ، مُشْ عارف أغضب ازَّاى ! »

— : « إنتَ سرقت علبة الكبريت ؟ »

— : « دِى جِىّ طارت من الدكان ، حسبتها عصفورة ومسكْتها . . . . »

النيابة : « وليهْ ما طارتْش العلب اللّى معاها فى الدكان ؟ »

— : « أنا عارف ؟ يِمْكِن خافت منى ! »

النيابة للمحكمة : « جراءة مخيفة يا حضرات القضاة ، المتهم وهو فى هذه السن ، يشعر فى ذات نفسه أن الأشياء تخافه »

فصاح الغلام مسروراً من هذا الثناء .. « والله يا افندى إنتَ راجل طيِّب ! أديك عَرفْتِنى ، ربّنا يكفيك شر العمدة والغفير ! »

* * *

وأمضى الحُكْمُ فى الاستئناف ، وخرج الصغير مع رجال من المجرمين يسوقهم الجند ، ثم احتبَسوا الجميعَ فترةً من الوقت عند كاتب المحكمة ، ليستوفىَ أعماله الكتابية ؛ ثم يساقون من بعدُ الى السجن

وجلس « عبد الرحمن » على الأرض ، وقد اكتنفه عن جانبيه طائفة المجرمين يتحادثون ويتغامزون ، وكلُّهم رجال ولكنه وحده الصغير بينهم ؛ فاطمأنّ شيئاً قليلا ، إذ قدَّر فى نفسه أنه لو كان هؤلاء قد أُريدَ بهم شرٌّ لما سكنوا هذا السكون ، وأن الذى يرادُ بهم لا يناله هو إلا أصغرُ منه ، كصفعةٍ أو صفعتين مثلاً . . . وهو يسمع أن الرجال يقتلون ويُحرِّقون ويَسِمُّون ويعتدُون وينهبون ؛ وما تكون (علبة الكبريت) فى جنب ذلك ، وخاصةً بعد أن استردّها صاحبُها ؛ وقد نال هو ما كفاه قبل الحكم ؟

وما لبث بعد هذا الخاطر الجميل أن ردَّ الاطمئنانُ فى عينيه دموعا كاد يُريقها الجزَع . غير أن القلق اعتادَهُ فالتفتَ إلى كُتّاب المحكمة مرةً وإلى الجند مرةً ، ثم لوى وجهَه ولم يَستبحْ لنفسه أن يتجرأ على الفكر فيهم ، لأنه قابَلَ مهابتهم بآلهة بلده : العمدة والمشايخ والخفراء ؛ فأدركَ أن الجنود هم الحكومة القادرة ، واستدلّ على ذلك بأزرارهم اللامعة ، وخناجرهم الصقيلة ، وتمشّت فى قلبه رهبةُ هذه الخناجر ، فاضطرب خشيةَ أن يكونوا قد أسلموه إلى مَن يذبحه ، فنظر الى الذى يليه من المجرمين وسأله : « راحْ ياخدُونى فِينْ ؟ » فأجابته السكةُ خفيةً انطلق لها

(١) كان أبو الغلام سناناً ، ومثل هذا القدر من العامية فى القصة هو ملح القصة

دمعه ، حتى أسكتَه الذى يليه من الجانب الآخر ، وكان فى رأيه من الصالحين :

ثم اتصل الجزعُ بين قلبه وعينيه ، فهما تضطربان الى الجهات الأربع ، وكأنما يحاول أن يستشفّ من أيّها سيأتيه الموتُ ذبحا .

ولم يكن فهِمَ معنى (الاصلاحية) ، وحكّمَ القضاةُ عليه كأنه رجل يفهم كلَّ شىء ، ولم يرحموا هذه الطفولة بكلمة مفسّرة . وعدلُ التربية غيرُ عدل القانون ، فكان الواجب على القاضى الذى يحكم على الطفل ، أن يجعل حكمَه أشبهَ بصيغة القصة منه بصيغة الحكم ؛ وأن يدعَ الجريمة تنطلق وتذهب فلا يقول لها امكُثى . .

وبقى للخناجر رهبتها فى نفس هذا المسكين ، فلو أنهم قادوه إلى حبل المشنقة لأفهمه (الحبلُ) معنى العقوبة ، أما وهو بين هذه الخناجر المُغمدة – وفى الخناجر معنى الذبح – فانما هو الذبح لا غيره

وطرقتْ أذنيه قهقهة المجرم عن يمينه فاستنقذته من هذا الخاطر ، فثبّتَ عينه فى الرجل ، فاذا هو يرى وجهاً متلألئاً ، وجسماً رابطَ الجأش ، وهزؤاً وسخرية بهؤلاء الجنود وخناجرهم

واستراح الغلام الى صاحبه هذا ، وألحّ بنظره عليه ، وابتدأ يتعلّم فى وجهه الفلسفة ؛ وليست الفلسفةُ مقصورة على الكتب ، بل إن لكل إنسان حالةً تشغله ، فنظرُه فى اعتبار دقائقها وكشفِ مستورها هو الفلسفةُ بعينها

وقال الغلام لنفسه : « هذا الرجل أقوى من كل قوة ؛ فهو محكوم عليه ولا يبالى ، بل يقهقه ضحكا ؛ فهذا الحكم إذن لا يخيف . لا ، بل هو تعوّدَ الأحكام ، إذن فمن تعود الأحكام لم يخفْ الأحكام ؛ إذن يا عبد الرحمن ستتعود ، فان الخوف هذه المرة قد غطك من (علبة الكبريت) فى حريقٍ متسعّر ؛ وما قدرُ (علبة الكبريت) ؟ فلو كانت السرقة جاموسة ما لقيتُ أكثر من ذلك ؛ يا ليتنى إذن ... ولكنى لا أزال صغيراً ، فمتى كبرتُ ... آه متى كبرتُ . . »

وبدأ القانونُ عمله فى الغلام ؛ فطرد منه الطفلَ وأقرّ فيه المجرم

* * *

وأطرقَ « عبد الرحمن » هادئاً ساكناً ، وقامت فى نفسه محكمةٌ من الأبالسة ، بقضاتها ونيابتها ، يجادل بعضُهم بعضاً ، ويداولون بينهم أمرَ هذا الغلام على وجهٍ آخر

وقال شيطان منهم : « ولكنا نخشى أمرين : أحدهما أن (الاصلاحية) ستُخرجه بعد سنتين شريفاً يحترف ؛ والثانى أن الناس ربما تولّوه بالتربية والتعليم فى المدارس رحمةً وشفقة ، فيخرج شريفاً يحترف »

وما أسرع ما نفى الخوف عنهم قولُ الغلام نفسِه بلهجة فيها الحقد والغيظ ، وقد صفعَه الجندىُّ الذى يقوده الى السجن – : « ودا كلّه على شان علبة كبريت . . . ؟ »

.. ..

.. ..

فى سنة ١٩٣٤ قضتْ محكمة الجنايات بالموت شنقاً على قاتلٍ مجرمٍ خبيثٍ ، عيّارٍ متشطّرٍ ، اسمُه « عبد الرحمن عبد الرحيم » . . . ؟

مصطفى صادق الرافعى

ظهرت الطبعة الجديدة لكتاب

رفائيل

صحائف سن العشرين

لشاعر الحب والجمال (لامرتين)

مترجمة بقلم

احمد حسن الزيات

والقصة قطعة من شباب لامرتين ، وجذوة من شعوره ، ولحن من شعره . طبعتها لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعة أنيقة منقحة رخيصة فاطلبها منها أو من ادارة الرسالة أو من أى مكتبة